صور سياحية

٥ ـ فرنسا وباريس

الحريات المتطرفة

وبعض مظاهر الحياة الاجتماعية

بقلم سائح متجول

ليس بين أمم العالم أكثر ترديداً لكلمات الحرية والأخاء والمساواة من فرنسا

ولا غرو فقد كانت الثورة الفرنسية مهد الحريات الديمقراطية فى أوربا، ومنها انبثق فجر الديمقراطية الأوربية الحديثة، وفيها تقررت حقوق الانسان، وكانت صيحة الحرية والأخاء والمساواة أقدس شعائرها

وقد خاضت الأمة الفرنسية كثيراً من الحوادث والخطوب وبذلت كثيراً من دمائها للاحتفاظ بذلك التراث المقدس: تراث الثورة الفرنسية، وتراث الحريات الديمقراطية؛ وما زالت فرنسا على رغم الحوادث والخطوب حصن الديمقراطية فى أوربا، وما زال شعارها المقدس: «الأخاء والحرية والمساواة» ترقبه على نقدها، وعلى جميع دورها العامة، وتقرؤه فى كل مكان وكل مناسبة

ولا ريب أن الحريات العامة والحريات الشخصية أكثر توفرا فى فرنسا منها فى أى بلد أوربى آخر؛ حرية القول والكتابة، وحرية التصرف، فى حدود القوانين طبعاً؛ وفى فرنسا يعقد أى اجتماع، ويلقى أى خطاب، وينشر أى كتاب أو مقال سياسى أو اجتماعى، دون أن تتدخل السلطات أو تعترض إلا ما كان واقعاً تحت طائلة القانون، أو ما كان ينذر فعلاً بتكدير الأمن العام

هذا فى فرنسا فقط؛ ولكن فرنسا تفهم الحريات خارج فرنسا فهماً آخر؛ والسياسة الفرنسية لا تطيق أن تسمع لفظ الحرية فى شمال أفريقية مثلاً أو فى غيرها من الأملاك والمستعمرات، ولها وسائلها الخاصة فى اخماد كل نزعة أو حركة حرة، وفى سحق كل رأى حر

ولكن ذلك لا يمنع أن تكون فرنسا ذاتها بلد الحريات المتطرفة، بل إن أولئك الذين يسلبون حرية الرأى والتصرف فى بلادهم يجدون فى فرنسا ملاذاً لهذه الحريات

والحرية أسمى ما يتمتع به الانسان، وأثمن ما تزدان به الكرامة الانسانية، ولكن التطرف فى فهمها وتطبيقها يخرجها أحياناً عن دائرة المعانى الرفيعة التى قصدت اليها، وعندئذ تغدو ابتذالاً وخروجاً على النظم والقوانين، وأحياناً على الحشمة والحياء

وقد وصلت الحريات السياسية فى فرنسا إلى حدود التطرف والاغراق، ووصلت الحريات الاجتماعية إلى حدود الاباحة والابتذال

وإنه ليكفى أن نتتبع مايقع فى فرنسا كل يوم من مظاهرات واعتصابات عنيفة، وما يحيط المعارك والمناقشات الحزبية فيها من مناظر الاضطراب والفوضى، وما تتكشف عنه حياتها ونظمها العامة من ألوان الفساد والضعف فى تكرار الفضائح المالية والسياسية الكثيرة، لنحكم بأن هذه الصورة من النظم الديمقراطية التى تقدمها الينا فرنسا ليست من أفضل صور الديمقراطية وأحبها

وفى وسع السائح المتجول أن يلمح كثيراً من ألوان الفوضى السياسية فى فرنسا، فى أقوال الصحف وفى مناقشات الأفراد، وفيما يعرض للبيع من النشرات السياسية والشيوعية التى تسمم الآراء وتذكى الشهوات والأحقاد. ولقد حدث ونحن فى باريس فى الأيام الأولى لاضطرام الثورة الاسبانية أن هب فريق كبير من الصحافة الباريزية يتهم الحكومة الفرنسية بأنها ترسل الذخائر والطيارات سراً إلى حكومة مدريد، وأنها بذلك تزيد نار الثورة ضراما وتعرض السلام للخطر، فاضطرت الحكومة أن تصدر بلاغا رسمياً تنكر فيه هذه الوقائع، واضطرت بعد ذلك أن تثير مسألة عدم التدخل فى الحوادث الاسبانية، هذا بينما انتهزت الدول الفاشستية (ايطاليا وألمانيا) كل فرصة لامداد الثوار بكل صنوف المعاونة فى الوقت الذى لبثت تتظاهر فيه

بقبول فكرة عدم التدخل ؛ وهكذا افسدت الصحافة برعونتها على الحكومة موقفها وسياستها

وفى فرنسا اليوم حزب شيوعى قوى يحتل أربعة وسبعين كرسياً من كراسى البرلمان ، ويبث دعايته فى عدة صحف ونشرات قوية فى مقدمتها جريدة « الأومانتيه » التى أسسها جان جوريس ، ويكتب فيها اليوم أشهر الكتاب والنواب الشيوعيين مثل مارسل كاشان ، وبول لوى ، وفايان كوتريه ، وموريس توريز وغيرهم

وكثيراً ما سمعنا ، عند ما نشبت الثورة فى اسبانيا ، أن فرنسا قد تضطرم عما قريب بمثل تلك الثورة ، إذا لم تعمل الحكومة لتحسين الأجور وتأمين العمال على حقوقهم ورفاهتهم ، كنا نسمع ذلك فى مقاهى باريس ومطاعمها وشوارعها

* * *

وكما أن الحريات السياسية تتخذ ألوانا من التطرف والافراط فكذلك الحريات الاجتماعية فى فرنسا

ولا ريب أن معظم المجتمعات الأوربية تتمتع بحريات اجتماعية واسعة ، ترجع الى نظام المجتمع ذاته ، والى ما تتمتع به المرأة من حريات مطلقة ، كما ترجع الى روح القوانين ، والى فهم المبادىء الاخلاقية ومعيار الحياء بطرق وأساليب خاصة

ولكن لا ريب أيضاً أن فهم الحريات الاجتماعية يتخذ فى فرنسا ألوانا من التطرف قد لا يسيغها كثير من المجتمعات الأوربية ، كما يتخذ التساهل فى فهم معيار الحياء ألوانا تستهجنها المجتمعات الأخرى

مثال ذلك مناظر العرى التى حدثناك عنها فى مقال سابق ؛ ففى باريس تنتشر مسارح العرى ؛ وتعرض المناظر والرقصات العارية فى أفخم مسارح باريس مثل الفولى برجير والكازينو دى باري ، ويعلن عنها فى أكبر الصحف مثل الطان والفيجارو والجورنال والماتان وغيرها ، وتعرض أسراب الراقصات العاريات بلاحرج ، ويعتقد القضاء أن هذا الضرب من التمثيل العارى عمل فنى لا اعتراض عليه ، ويتحدث النقدة الفنيون فى الصحف المحترمة عن نجاح مس جوان وارنر « ملكة العراء المطلق » وعن رقصاتها العارية

وفى باريس تصدر مجلات جنسية كثيرة ، ويكتب بعضها بأساليب مثيرة ، وينشر صورا عارية ، واعلانات غرامية هى اتجار مكشوف بالحب ، ولنمثل لذلك بمجلة « فرو فرو » التى ربما كانت أكثر تحفظا من غيرها ، كذلك تعرض الكتب الجنسية بكثرة فى المكاتب ومع الباعة وتلقى رواجا مدهشا

وفى باريس ترى مناظر الحب فى النهار وفى الليل ، فى الشارع وفى الحديقة ، وفى المقهى ، وفى المترو ؛ ومن المناظر العادية أن ترى فتى وفتاة يتبادلان القبلات الحارة وقد أمسك الفتى بخصر الفتاة ، أو يتبادلان العناق المضطرم ؛ ترى ذلك فى أى وقت وأى مكان ، وتراه بنوع خاص فى أقبية المترو ، وفى المترو ذاته ، ولا يمنع ذلك أن يكون وسط الجمهور الحاشد ، والأعين ترمقهما من كل صوب ؛ بل ترى فى أقبية المترو ، فى المنعطفات المستترة أو حين ينسدل الظلام كثيرا من المناظر الغرامية المريبة

وتكثر مثل هذه المناظر المثيرة أو المريبة مساء فى منعطفات مونمارتر وبيجال وكليشى وفى المراقص والحانات الليلية

ولا تختص باريس وحدها بهذه المناظر الاباحية ، فقد رأيت فى الجنوب أثناء انتظارى بمحطة ناربون جماعة رياضية من طلبة الجامعات شبانا وفتيات وقد ارتدى الجميع الثياب الرياضية واشترك الفتيات فى ارتداء السراويل القصيرة التى تترك الساقين عاريين ؛ وفى أثناء انتظار القطار جاءت الفتيات فجلست كل واحدة منهن فى حجر فتى ، وساقاها العاريتان على ساقيه العاريتين وأخذ الجميع ينشدون النشيد الجمهورى ، وقد طوق كل فتى فتاته بلا حرج

ولكن من الانصاف أن نقول إن الطبقات الدنيا هى التى تذهب فى فهم الحب والحريات الاجتماعية الى هذا الابتذال المثير على أننا نعرف كما يعرف الذين زاروا العواصم الأوربية الأخرى أن رقص العراء المطلق لا يسمح به إلا فى باريس ، وأنه يندر أن ترى فى غيرها من العواصم مثل هذا الابتذال العلنى فى مناظر الحب والغرام ، أو مثل هذه المجلات والكتب الجنسية التى تغمر باريس

وإذا كانت الحريات الأجتماعية فى برلين وفينا مثلاً لا تقل إطلاقا وتساعاً عنها فى باريس ، فان معيار الحياء يرتفع فيهما

كثيرا عنه فى باريس ؛ ومن النادر أن ترى فى الشارع أو الحديقة أو الترام أمثال هذه المناظر الغرامية المكشوفة التى تراها فى باريس

وإذا كانت باريس قد اشتهرت دائما باللهو الخليع ، فتلك شهرة فى محلها ، وباريس تموج باللاهى الخليعة من كل ضرب ، وتغمرها بالليل ريح شاملة من المرح الخليع ، ومن الغريب أن هذه الملاهى يعلن عنها بمنتهى البراعة ، وتصور فى اعلاناتها وبرامجها كأنها أروع ما انتهى اليه الفن ؛ فاذا ازدلفت اليها منيت بخيبة الأمل ، ورأيت الابتذال بعينه ، وأدركت ما فى هذه الدعاية الخلابة من ختل وتضليل

* * *

ولقد تحدثوا كثيراً عن سحر الباريزية وأناقتها ورشاقتها ؛ ونحن نستميح عشاق العاصمة الفرنسية عذراً ، إذا قلنا إننا لم نستطع أن نكتشف فى الباريزية كثيراً من هذا السحر وهاته الأناقة ؛ فالمرأة الباريزية تعتمد فى جمالها وسحرها على المظاهر والصناعة أكثر مما تعتمد على الحقيقة ؛ وهى تكثر من صباغة الشعر والأظافر وتفرط فى استعمال المساحيق ؛ والشقرة هى لون الشعر المحبوب فى باريس ، ولكنها شقرة صناعية فى الغالب ؛ والواقع أن الباريزية لا تتمتع بذلك اللون الوردى الباهر الذى تتمتع به الانكليزية أو النمسوية مثلاً ، بل يغلب عليها اللون الثلجى أو اللون الباهت ، فتعمد فى تجميله إلى الصناعة ؛ ويبدو عناء التجمل فى وجهها دائماً ؛ وأما عن الأناقة فان الباريزية لا تتمتع منها بقسط كبير ، فهى تميل إلى الأزياء المعقدة أو الغريبة ، وتكثر من الألوان بلا تناسق ؛ والخلاصة أن الباريزية تعشق المظاهر ، وتفرط فى التجمل ، وتعتمد على الصناعة ؛ بيد أنها تتمتع مع ذلك بخفة روح لا شك فيها

وإن أولئك الذين عرفوا ڤينا وباريس معاً ، يعرفون كم تحوى ڤينا من الجمال النمسوى الرائع ، وأى صباحة ورشاقة وأناقة طبيعية تتمتع بها الفتاة النمسوية ، وأى فرق شاسع بين هذا السحر الطبيعى وبين ذلك السحر الصناعى الذى تلجأ إليه الباريزية فى تكلف وعناء

ويصح أن نشير هنا إلى مسألة الصحة العامة والنظافة الشعبية ، فقد لاحظنا أن الصحة العامة ليست فى أوجها ، وأن الشباب لا يتمتع بكثير من النضرة ومظاهر القوة والفتوة ؛ وتبدو مظاهر السقم والعناء على وجوه الطبقات العاملة من رجال ونساء ؛ وقد لاحظنا فوق ذلك أن هذه الطبقات وربما بعض الطبقات الوسطى أيضاً لا تعنى كثيراً بمسألة النظافة ؛ وإنه ليكفى أن تركب الترو ظهرا أو مساء حين يكتظ بالعمال والمستخدمين لتدرك هذه الحقيقة ، ولا تشذ عن ذلك أسراب الفتيات الحسان ؛ وربما كان فى ظروف حياة هذه الطبقات ما يفسر هذه الظاهرة ، فالنظافة تحتاج الى كثير من النفقة ، والاستحمام فى باريس ترف يصعب على الفقراء الاكثار منه ؛ وفى الفنادق المتوسطة قد يكتفى بغرفة حمام واحدة فى طبقات الفندق كلها ؛ والغرفة ذات الحمام الخاص ترف رفيع لا يسمع به إلا فى الفنادق الارستقراطية ؛ وهذه حقائق لا يصعب على السائح اكتشافها

* * *

والى هنا نقف فى حديثنا عن باريس وعن الحياة الباريزية والمجتمع الباريزى ؛ ولقد قلنا فى بدء هذه الفصول إننا لا ندعى الوصول إلى أعماق المسائل والشؤون ، واننا إنما ندون حقائق وملاحظات انتهينا اليها بالتجوال والمشاهدة ، وأحيانا بالتجارب والدرس ؛ وقد حفزنا الى كتابة هذه الفصول ما سبق أن نوهنا به فى البداية وهو أننا ما زلنا نقرأ بالعربية عن فرنسا وعن باريس كتبا وفصولا يطبعها الاغراق والمبالغة فى التغنى بمحاسن العاصمة الفرنسية وكل ما فى الحياة الفرنسية ؛ وها نحن أولاء قد حاولنا بهذه الفصول المتواضعة أن نقدم بعض الحقائق والصور حسبما رأينا وشعرنا بعيدا عن كل إغراق ومبالغة ؛ وربما كانت باريس بالأمس أعظم فتنة وأشد سحرا منها اليوم ، وربما فقدت العاصمة الفرنسية كثيرا من هذا السحر بفعل الظروف والتقلبات الاقتصادية والاجتماعية ، ولكنا نصرح مخلصين أننا لم نشعر أن لباريس هذا السحر الفياض الذى ينسب لها ، أو أن لها تلك الفتنة التى أملت على كثير من كتابنا تلك الفصول الوردية الرنانة . هذا ومما يبعث الى الغبطة أن كثيرا من الأصدقاء البارزين الذين عرفوا باريس وعرفوا حياتها ومجتمعاتها أكثر مما عرفنا ، يقرون كثيرا من هذه الصور التى قدمناها والملاحظات التى أبديناها

(يتلى)

(***)